رقصة العاشق

لعل أروع العشق هو ذاك الذي يلهبك ولا تحترق، بل يعيد رسم دوائرك صافية منخطفة إلى النور؛ هو العشق الإلهي، وهل من عشق إلا هو؟

هو هذه اللحظة التي تختزل الزمن، يتعانق فيها الماضي والمستقبل، ويعانق فيها السكون الحركة، فإذا بالمتناقضات أوهام تذوب في تجانس النغم؛ كرقصة الكاتاك، «تحاكي فيها الحركة السكون» على إيقاع النغم الواحد؛

هو نقطة تتسع للكون، فإذا المسافات أوهام، والأشكال بلا حدود، والحضور بلا أسماء؛ كرقصة الدرويش، تبدأ في النقطة، ودون أن تتركها تتصل بالمدارات فتصبح كوكباً يلاعب الأنوار؛

هو نبض القلب عندما يشق الحجب، يدفعك إلى الجنون، فتستسلم، تموت من الحب لتعود فتولد منه بعيون تبصر النور أينما حطت، وتغني أختي الشمس أخي القمر،[١] وتذوي الكلمات في صحوة المعاني.

هو صوت يناديك من الداخل، ينشد ويسبّح بفرح فتتبعه مهما كانت مسالكه، في الدين أو عبره، خارج الدين والمعتقد، هو دائماً في موقع الوسط.[٢]

ماري روز زلزل

(١) نشيد القديس فرنسيس الأسيزي.

(٢) Jean claude Carriere. *Dictionnaire amoureux de l'Inde*. ed. Plon, 2001.

عشاق الله الذين أذكرهم هم الذين أوجدوا طرقاً فشكل مرورهم محطات تضيء طريق السالكين. هم عشاق مجانين تلمسوا طريقهم عبر أديان مختلفة، وصلوا بالحب إلى وجه ربهم حيث الفرح والدهشة وعادوا لينشدوا الحب وليرقصوا؛ ليعلنوا انتماءهم غير المشروط للدنيا حيث يشع وجه الله من لطافة القلوب عبر كثافة الأجساد. في وهج النور كلهم واحد، وفي حركة الزمن يتميزون كما الألوان في قوس قزح.

من عشاق الله تسطع الأنوار، كما يفيض الحب من قلوب الباكتي والدراويش.

الباكتي هو طريقة في اليوغا، تعرف بأنها الأقصر إلى الله لأنها طريق الحب.(٣) لا يحتاج فيها الساعي إلا أن يصفو لشوقه، وينقي نفسه من شوائبها من خلال تسليم أمره لله. والحب في الباكتي يبدأ انفعالاً عاطفياً، ليصبح بعد التمرس توحيداً ومعرفة مباشرة؛ فالباكتي ينقي فكره إلا من ذكر الله عبر التأمل، ويكرس كل نشاطه في خدمة الله، ويسعد بصحبة من يذكر الله.(٤)

وغالباً ما تبدأ الطريق في علاقة ثنائية بين المعلم والمريد، ثنائية تسبق وحدة النفس مع ذاتها ومع الله حيث المعلم هو المرآة الصافية التي تعكس اكتمال النفس وقد أيقظتها من سباتها العميق. تبدأ عندما يدرك المريد الحالة التي يسعى إليها مجسدة في هذا المعلم العاشق، يوقظ فيه الشوق، ويشير إلى موقع القلب. وتبدأ رحلته الكبرى باتجاه القلب. فالحواس المنفتحة على الخارج بدأت تدرك حدودها، ولم يعد ينقذها إلا أن تكون في حضرته هو. تمر هذه العلاقة بأطوار الحب الإنساني، فيكون المعلم هو الأب والأم والابن والصديق والأستاذ والحبيب؛ يتلقى بثبات كل تصورات الحب عند تلميذه، يستوعبها ويساعده على التحرر منها، ويوصله إلى حيث تصفو نفسه من رغباتها وتنعتق من قيودها، وتصبح جاهزة للتوحد؛ ينسحب المعلم، ليحتل «هو» كل المكان.

فتنشق الحجب وينكشف أمامه وجه ربه، فيغمره بالفرح، ويرى النور في داخله، ويسمع موسيقى الأكوان التي فيه ويتذوق رحيق الحياة. إنها لحظة الولادة الحقة، حيث يتوحد العاشق مع ربه، ويدرك أن الفاصل بين الخارج والداخل هو فاصل وهمي، وأن الكل متحد مع الكل ؛ ينفتح على كل الكائنات، ويعشق ربه في

(٣) Osho. *Life: a song, a dance*. ed. Diamond Pocket Books. 1998.

(٤) Swami Chidananda. *Guide lines to illumination*. Ed. Divine Life Society 1984.

الآخر، فيصبح أكثر تحسساً لآلام الناس لأنه يعيشها معهم، وتصبح سعادة الآخرين وتحريرهم من قيودهم جزءاً من سعادته ومكملاً لحريته.

في هذه الحالة يكون الفرح عارماً، يفيض على العقل فيغبطه، وينطلق شعراً ورقصاً وموسيقى ....

١- الطريقة المولوية-السماع.

السماع هو حالة العشق لدرجة الفناء بالله؛ والطريقة المولوية أي طريقة جلال الدين الرومي هي طريق الرقص والإيقاع، ألم يقل الرومي «الطرق إلى الله كثيرة وأنا اخترت طريق الرقص والموسيقى؟»(٥)

تفتّح قلب الرومي منذ لقائه الأول مع شمس التبريزي. كان نقطة التحول الكبرى والأساسية في حياته جعلته يقول: «أقسم بالله أنه أضاء شموعاً فجرت النور في حياتي وكشفت كل الأسرار.» في هذه اللحظة كانت الولادة الثانية على يدي شمس الذي قال له «أنت الطالب الذي أريد تدريسه،» وقال له الرومي: «أنت شمسي التي بها أستنير.»

إن نظرة شمس إلى الرومي أعادت الدفء والحياة إلى قلبه وعرّفته إلى الحقيقة الكامنة والمنسية داخله، مما جعل الرومي يقول:

«نظرت إلى عيني شمس فرأيت نفسي كما في المرآة.»

وقال أيضاً: «إن رأيته أو رأيتني الأمر سيان، يا باحثاً أنا هو،

أنظر في نفسي فأرى شمس.»(٦)

ثم تلاشت تدريجياً صورة شمس ليحتل حب الله، مجرداً عن الصور، كل المكان.

في المرحلة المتقدمة من الطريقة المولوية، لا يعود الدرويش يرى فيما ينظر إليه إلا صورة ربه ولا يسمع إلا نداءه، فيرقص وينشد...ثم يرقص، ويردد

«إن طريقة نبينا هي طريق الحب،

إن أردت أن تحيا عليك أن تموت بالحب،

وأن تموت بالحب هو أن تبقى حياً.»

(٥) **المثنوي** - جلال الدين الرومي.

(٦) **ديوان الكبير** - جلال الدين الرومي.

إن الشعر والموسيقى والرقص هي سبل اكتمال الروح في الطريقة المولوية، تخرجها من التعدد والثنائية لتعود بها إلى عالم التوحيد، أي توحد النفس مع خالقها.

يقول الرومي: «كيف يمكن للنفس أن لا تنطلق عندما يطلق الإله نداءه الطيب كالعسل، ارتفعي !

كيف يمكن للسمكة أن لا تقفز من الأرض القاحلة إلى النهر عندما تسمع هديره، كيف يمكن للصوفي أن لا يرقص كالذرة حول الشمس الإلهية فتنقذه من هذا العالم الفاني وتعيده إلى مداراته؟».

السماع هو جواب النفس لنداء خالقها، هو طريق العودة إلى المعرفة والتحقق. السماع هو المرحلة التي تصل فيها الروح إلى آخر مداراتها، فتسمع ما كانت تعتقد أنها نسيته، تتذكره هو، تسمعه هو، تصبح هو في لحظة الذكر.

يقول الرومي «عندما يعزف الناي، تستعر رقصة الدراويش وتستدعي كل متحرك في الطبيعة لملاقاتها في رقصها.»

الأمثلة على العشاق، مجانين الله كثيرة. تبدأ القصة بنظرة من عين محبة حانية، تعيد للقلب حرارة نبضه، وللفكر حريته وانعتاقه من كثافة المادة ؛ تعبر طريقها إلى الحق والفرح، حيث يعجز الكلام عن الوصف، تتعرف الروح إلى حقيقتها ومكانتها، وتعود بعدها لا محال، لتسكب من نور العين حباً على حب.